

تأثير آراء محمد عبده في أشعار حافظ إبراهيم الدينية

علي اني شال ❖

أحمد أميدوار ❖❖

الملخص

اتصل حافظ إبراهيم الملقب بـ«شاعر النيل» بالشيخ محمد عبده، وتأثر بأرائه في أشعاره؛ وكما كان متأثراً بالشيخ، كذلك تأثر بتلاميذه وبعض أدباء مصر مثل: إسماعيل صبري ومحمود سامي البارودي.

تقوم هذه الدراسة بتبيين وجوه تأثيرات الشيخ على أشعار حافظ؛ ولذلك بحثت في مؤلفات الشيخ، وديوان شاعر النيل، وقارنت بينهما، وذكرت آراء الشيخ وأشعار حافظ ليرى القارئ هذا التأثير وذاك التأثر. ولإثباته ذكر بعض الأقوال المتناثرة في الكتب المختلفة، وشرح بعض الأقوال الموجزة فيها.

إنّ هذه التأثيرات تظهر في مجال الحجاب والزكاة والشورى والإصلاح الديني والجهاد والتسامح الديني والتوسل إلى أنبياء الله ﷺ وأوليائه ﷺ وزيارة أضرحتهم. إنّه في هذه المجالات يردّد نغمات الشيخ، ويؤكد على آراء الشيخ في الحجاب، فيدعو إلى ترك النقاب، ويرى أنه ليس من المشروعات الإسلامية. كما يريد من الأغنياء أن يساعدوا البؤساء بأموالهم؛ لأنّ للبؤساء حقّ في أموال الأثرياء. ويعتبر الزكاة من أهم أركان الإسلام، وينوّه بالشورى، ويعلّل قوة الإنجليز لقيامهم بالشورى والتعاون فيما بينهم. كذلك يمدح محمد عبده لما قام به من تنزيه الدين من الخرافات والأوهام.

كان حافظ إبراهيم مستكراً ما يتعارض مع الدين من البدع والعادات والضلالات، ويطلب من الشيخ أن ينقذ النفوس الضالّة. إنّه يدعو أبناء شعبه إلى الجهاد مع المحتلّين بما يملكون، ويرى أنّ الإسلام دين يدعو إلى الوحدة، ويرضى بمجاورة المسلمين مع المخالفين في العقيدة؛ ولذلك يريد من المسلمين والمسيحيين أن يتحدوا.

المفردات الرئيسية: حافظ إبراهيم، محمد عبده، إسماعيل صبري، محمود سامي البارودي، القيم الدينية

١- تاريخ التسلم: ١٤/٤/١٣٨٩ هـ. ش (٢٠١٠/٧/٥ م)؛ تاريخ القبول: ٣٠/٩/١٣٨٩ هـ. ش (٢٠١٠/١٢/٢١ م).

❖ أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة «تربيت مدرس» في طهران.

❖ طالب في مرحلة الدكتوراه في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة «تربيت مدرس» في طهران.

المقدمة

كان الشعراء في الجاهلية ألسنة قبائلهم، وذوي الرأي فيهم، ويلجأ الناس إليهم في الحروب والنكبات. وكان الشعر ديوان سجل فضائل القبيلة ومفاخرها، كما كانت العرب تفخر بأشعارها، وتعدّ ذلك من أبرز محاسنها. إن بزوغ شمس الإسلام أثر في الشعراء العربي آنذاك تأثيراً عظيماً، وفي حين اشتدت المعركة بين الإسلام والكفر، دخل الشعر هذا الصراع؛ فوقف فريق من الشعراء إلى جانب الرسول ﷺ، ونصروا الحق، وفريق آخر وقف إلى جانب قريش، ودافعوا عن الباطل.

والقرآن مَيَّز بين الفريقين. ففريق استغلّ فته فيما ينافي هدى الدين وآدابه، وهو الفريق الضالّ الذي حاربه القرآن؛ وفريق اتجه بشعره نحو العمل الخير الجميل. فالشعر فنّ يمكن أن يستخدم في مواطن الخير أو الشر؛ فقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ (الشعراء ٢٦: ٢٢٤-٢٢٧).

أمّا موقف الرسول ﷺ من الشعر، فكان امتداداً لموقف القرآن ومجسداً لأحكامه. فلما جاء الإسلام، أصبح الشعر الديني من أهم الأغراض الشعرية؛ حيث بدأ الشعراء ينشدون أشعاراً حول عقائد الدين ومثله العليا، ويدعون إلى التمسك بها. واستمرّ هذا الأمر طوال العصور المنصرمة.

في العصر المعاصر أيضاً لا يزال يؤثر القرآن في الشعر العربي من حيث الألفاظ والمعاني والأفكار والصور والأخيلة. إن شاعر النيل حافظ إبراهيم من الشعراء الذين عبّروا في أشعارهم عن القيم الدينية، وهو يعدّ من كبار الشعراء العرب، ولا تزال دراسة أشعاره تشغل بال الباحثين.

لقد تضافرت أسماء المؤلفين الذين كتبوا كتباً ومقالات حول شاعر النيل، وتُلاحظ من بينها أسماء عباقرة مثل: طه حسين وزكي مبارك والعقاد و... واهتمّ كثير من الباحثين بدراسة أشعار حافظ، وركّزوا على شرح الآراء السياسية والاجتماعية فيها. من ذلك كتب مؤلفين مثل: زكي مبارك وشوقي ضيف وعبد اللطيف شرارة ومحمد كرد علي، وبعض الرسائل التي كتبت في السنوات الأخيرة في إيران، ولكن الموضوع الذي أغفل عنه الباحثون هو تأثير محمد عبده في أشعار شاعر النيل؛ فلذا لم يشيروا إلى هذه التأثيرات، أو يتنبهوا إليها ولكن لم يؤلّفوا لها بحثاً تاماً، ولم يهتموا بتحديد معالمها إلا في القليل النادر؛ فإنّ خلوّ الحقل الأدبي من الدراسات المتخصصة في هذا المجال قادنا إلى تأليف بحث عنوانه «تأثير آراء محمد عبده في أشعار حافظ إبراهيم الاجتماعية»^١.

وفي أثناء هذه المقالة تبين أنّ تأثير الشيخ في أشعار حافظ لا ينحصر في الآراء السياسية والاجتماعية، بل هناك جانب آخر بقي متروكاً، وينبغي أن يُكتب لها بحث تام، وهو جانب الشعر الديني. فهنا يخطر ببال القارئ هذا السؤال: في أيّ مجال أو مجالات تظهر هذه التأثيرات؟ فلذا تهدف هذه الدراسة إلى أن تزيل سترًا عن مصدر أفكار هذا الشاعر الكبير، وأن تجيب عن هذا السؤال بالمقارنة بين آراء الشيخ وأشعار حافظ في المجالات العدة التي ستذكر في الصفحات التالية؛ ولذلك يحمل هذا البحث مفتاحاً من المفاتيح التي تفتح أبواب أشعار حافظ إبراهيم، ويُنير جانباً غامضاً من جوانبها.

١- راجع مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها (فصلية محكمة)، العدد ١٢، خريف ١٣٨٨ هـ. ش/ ٢٠٠٩ م، صص ٢٣-٣٩.

أهم الأشخاص المؤثرين في أشعار حافظ إبراهيم

تضافرت عدّة عوامل تركت أثراً في أشعار حافظ إبراهيم؛ منها فقره وبؤسه وخيبة أمله في الحياة وتجاربه الواسعة، ودراسته وثقافته. إنّ ثقافته الرسمية كانت محدودة، ولكنه أكملها ووسّع معارفه بالإكثار من قراءة كتب الأدب، وإطالة النظر خاصة في كتاب الأغاني ودواوين الشعراء من أمثال بشار بن برد، ومسلم بن الوليد، وأبي نواس، وأبي تمام، والبحري وحفظ بعض أشعارهم (ضيف، ١٩٦١م، ص ١٠٥). كان من مكونات ثقافته دراسة اللغة الفرنسية التي كانت تعجبه (المصدر نفسه، ص ٩٤).

اتصل حافظ بأعلام العلم والأدب الذين اشتهروا في عصره، ونهل من بحار علمهم، وكان له أساتذة يأخذ عنهم ضرورياً من العلم والمعرفة وأشهر هؤلاء الأعلام:

١- إسماعيل صبري (١٨٥٤-١٩٢٣م):

كان حافظ يتردد على منزل الشاعر إسماعيل صبري، وبلتقي هناك بكثير من الشعراء أمثال شوقي ومطران وأحمد نسيم وغيرهم (سند الجندي، ١٩٩٢م، ص ٨٢). وكانوا جميعاً يعتبرون إسماعيل صبري أستاذهم، ولقبوه بشيخ الشعراء، ويعرضون عليه أشعارهم، ويستهدون بأرائه القيمة فيها (الرافعي، ١٩٦٦م، ص ٣٣). وإلى ذلك يشير حافظ في قصيدة أنشدها لثناء إسماعيل صبري:

لَقَدْ كُنْتُ أَغْشَاءُ فِي دَارِهِ	وناديه فيها زها وأزدهر
وَأَعْرَضَ شِعْرِي عَلَى مَنْعَمٍ	لطيفٍ يحسنُّ نُبُوَّ الْوَكْرِ
فِيصْنُقُ شِعْرِي صَقْلَ الْجُمَانِ	ويكسوه رِقَّةَ أَهْلِ الْحَضَرِ
كَذَلِكَ كَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -	إماماً لكلِّ أديبٍ شَعَرِ

(حافظ إبراهيم، ١٩٨٧م، ص ٥٢٥)

يقول: إنّه كان يتردد إلى منزل شيخ الشعراء لعرض أشعاره له، وكان له أثر في شعره، ويعترف بإمامة إسماعيل صبري في الشعر.

٢- محمود سامي البارودي (١٨٤٥-١٨٩٦م):

كان حافظ إبراهيم شديد الإعجاب بالبارودي، ولعلّ اتجاهه نحو الجنديّة كان ناشئاً عن رغبة شديدة في نفسه لأن تصبح سيرته مثل سيرة البارودي (سند الجندي، ١٩٩٢م، ص ٨٩). كان حافظ يذهب إلى دار سامي البارودي، وهناك يلتقي بعدد من شباب الشعراء في ذلك العهد؛ فيجلسون حول أستاذهم ويعرضون عليه ما أنتجوه. وكان الأستاذ لا يرضنّ عليهم بتوجيهاته الغالية (الرافعي، ١٩٦٦م، ص ١٨). فاتخذ حافظ مثله الأعلى يحذو حذوه، ويأمل أن يبلغ في الحياة مبلغه، فيكون ربّ السيف والقلم. وقد عبّر عن تقديره للبارودي وإعجابه به في قصيدة يمدح بها أستاذه حيث يقول:

أَمِيرَ الْقَوَافِي، إِنَّ لِي مُسْتَهَامَةً	بمَدْحٍ وَمَنْ لِي فِيهِ أَنْ أُبْلَغَ الْمَدَى؟
أَعْرَضْتُ لِمَدْحِكَ الْيَرَاعَ الَّذِي بِهِ	تَحْطُّ وَأَقْرَضُنِي الْقَرِيضَ الْمُسَدَّادَا
وَ هَبْنِي مِنْ أَنْوَارِ عِلْمِكَ لَمَعَةً	عَلَى ضَوْئِهَا أُسْرِي وَأَقْفُو مَنْ اهْتَدَى

(حافظ إبراهيم، ١٩٨٧م، ص ٧)

١- يريد بقوله: «يحسنُّ نُبُوَّ الْوَكْرِ» أنّه كان يدرك بلطف حسّه ودقّة ذوقه ما نبا من الألفاظ والعبارات ولم ينسجم مع ما جاوره في البيت أو القصيدة.

مدحه في هذه القصيدة بالإجادة في الحماسة والنسيب واللعب بالسيف والتفنن في التشبيب، فكأنه في مدحه البارودي يرسم لنفسه مثله، ويحدد مستقبله.

قد تأثر حافظ بأستاذه أشد تأثر من ناحية إثارة الجزالة وقوة العبارة، ولكن هذه الظاهرة أكثر بروزاً عند البارودي منها عند الحافظ، وتزوّد أيضاً من محصول أستاذه اللغوي (سند الجندي، ١٩٩٢م، ص ٩٠). ولم يستطع حافظ أن يصنع صنع أستاذه، لأنه لم يكن منظم الثقافة، ومن الحق أنّ البارودي كان أوسع ثقافة منه. وهو يختلف عن أستاذه أيضاً في أن ثقافته بالأدب الأجنبية كانت ضيقة محدودة، في حين أنّ البارودي يُقَفّ آداب اللغتين الفارسية والتركية (ضيف، ١٩٦١م، ص ١٠٤).

٣- محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥ م):

من أهمّ الأشخاص الذين تركوا أثراً عظيماً في شعر حافظ هو محمد عبده الذي تتلمذ على يد السيد جمال الدين، واشتهر بتركيته على الإصلاح الديني. بدأت صلة حافظ بالشيخ في حلقات الدرس التي كان محمد عبده يعقدها بالأزهر عصر كل يوم (عبدالله، د. ت، ص ٢٦) يقول حافظ عن اتصاله بالشيخ: «لقد كنت ألصق الناس بالإمام، وأغشى داره وأرد أنهاره، وألتقط أثماره» (حافظ إبراهيم، ١٩٩٧م، ص ١٣٥).

إنّ هذه المجالس كانت ينبوعاً عظيماً نهل منه حافظ أنواعاً من الثقافة التي أمدته بكثير من الأفكار التي صاغها في شعره (سند الجندي، ١٩٩٢م، ص ٧٤)، وأفاد من هذه المجالس التعرّف إلى عظماء مصر وكبار رجالها وقادة الرأي فيها أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم أمين و... (المصدر نفسه، ص ٩٢)، وبما أنّ محمد عبده أعانه وعلمه ورفع ذكره وعرفه بكثير من عظماء مصر وعلمائها، انتهج منهجه (الدسوقي، ب ٢٠٠٣م، ص ١٠٨).

اشتغل حافظ زماناً في الجيش، وذهب إلى السودان. وبعد عودته منها لزم محمد عبده خمس سنوات حتى وفاته، لا يكاد يفارقه في مجلس أو سفر. فهو معه أينما سار وأينما حلّ (محمود، د. ت، ص ١٠٨)؛ ولذلك لا ينبغي لدارس يتحدّث عن حافظ أن يغفل هذا الجانب الهامّ في حياته (عبدالله، د. ت، ص ٢٥).

كان يجلو لحافظ أن يلقب نفسه بـ «فتى الإمام»، مقتبساً هذا اللقب لنفسه من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنِّي عَلَىٰ بَاطِنِ الْأُمُورِ خَبِيرٌ﴾ (الكهف ١٨: ٦٠)، حيث يقول:

لَقَدْ بَثُّ مَحْسُوداً عَلَيْكَ لِأَنِّي فَتَاكَ، وَهَلْ غَيْرُ الْمُنْعَمِ يُحْسَدُ؟

(حافظ إبراهيم، ١٩٨٧م، ص ١٩٥)

وفي مكان آخر يكرّر هذا اللقب، ويطلب من الشيخ أن يساعده في العودة إلى مصر من السودان، حيث يقول:

يَا مَنْ تَيَمَّمْتَ الْفَتِيَا بَطَلَعْتَهُ أَدْرَكَ فَتَاكَ فَقَدْ ضَاقَتْ بِهِ الْحَالُ

(المصدر نفسه، ص ٦)

إنّه يشبه نفسه من الشيخ بيوشع بن نون الذي رافق موسى ﷺ واستنار بعلمه. كان حافظ يستخدم هذا اللقب للتأكيد على تواضعه، والتعبير عما يحسّ من فضل الشيخ عليه. وإذا لم يكن من محمد عبده كيوشع من موسى ﷺ، كان منه كموسى من الحضر ﷺ بقوله:

وَكُنْتُ كَمَا كَانَ ابْنُ عِمْرَانَ نَاشِئاً وَكَانَ كَمَنْ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ يُوصَفُ

(السابق، ص ٢١)

يشير إلى قصة نبي الله موسى مع الخضر عليه السلام، وكما كان يرشد الخضر موسى، كان الإمام يرشد حافظاً. لم تنقطع هذه المودة بعد موت الشيخ، بل بقي جرح موته بصدر فتاه. فكلما وقف يشيع رحيلاً جديداً، تمثل شخص الإمام أمامه، فيجعله يبكي ويتحسر على أيامه. إنه يرثي قاسم أمين فيقول له:

قُلْ لِلإِمَامِ إِذَا التَّقَيْتْ بِهِ فِي الْجُنْتَيْنِ بِأَكْرَمِ النُّزُلِ
إِنَّ الْحَقِيقَةَ أَصْبَحَ هَدَفًا لِلرَّاكِبِينَ مَرَاكِبَ الزُّلُلِ

(حافظ إبراهيم، ١٩٨٧م، ص ٤٧٤)

وكان في مراثيه يكرّر ذكر أيام الإمام، ولم يكن تقادم عهده مع محمد عبده يُنسيه ما نال من عوارفه. إنّ محمد عبده أثر أن يكرّس وقته وجهده لخدمة الدين والمجتمع والأخلاق، وكان يرى أنّ ذلك أنفع للإسلام والمسلمين في ظروفهم آنذاك من الاشتغال بالسياسة. فإذا عرف المسلمون أمر دينهم الحقّ، وأصلحوا مجتمعهم وأخلاقهم، وضحت أمامهم السبيل لإزاحة نير الاحتلال عن كواهلهم واسترداد أمجادهم (سند الجندي، ١٩٩٢م، ص ٩٣). وحاف إبراهيم باتصاله إلى محمد عبده استطاع أن يعيش في البيئة الطامحة إلى إصلاح المجتمع (محمد عويضة، ١٩٩٣م، ص ١٤). وكان الشيخ يرى أنّ أيّ إصلاح للشرق والشرقيين لا بد وأن يستند إلى الدين، حتى يكون سهل القبول شديد الرسوخ عميق الجذور في نفوس الناس (عبده، ج ١٩٩٣م، ص ٤٥)، ويريد من حافظ أن يطرق معاني جديدة في شعره بقصد إصلاح المجتمع (كرد علي، ١٩٩٣م، ص ١٦٣). وكان من أهم هذه المعاني الجديدة القيم الدينية، وإنّ القيم الدينية في أشعار حافظ كانت متأثرة بآراء محمد عبده؛ فإنّه كان يكرّر هذه القيم التي تمثل مبادئ وقواعد جوهرية في الإسلام، وكان يلحّ عليها إلحاحاً شديداً. ويُلاحظ من منهجه في معالجة هذه القيم التي تأتي في السطور التالية أنه كان قصير النفس في عرضها؛ فهو لم يخصص لها قصيدة كاملة، بل يعالجها في بضعة أبيات، وأنّه في الغالب كان يعرض هذه القيم عرضاً مباشراً، وبطريقة ملموسة، وأحياناً على سبيل التلميح. وأهمّ هذه القيم هي:

١- الحجاب:

آراء محمد عبده في مجال الحجاب:

إنّ العفاف طاقة روحية متميزة تعين الإنسان لكي يثبت في مواجهة أعاصير الهوى، ولا يضعف أمام الميول الهابطة. يمنع الإسلام النظرات المريبة غير الإنسانية، ويوصي المؤمنين والمؤمنات بغضّ النظر، ويدعوهم إلى النظرة العفيفة بقول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (النور: ٢٤: ٣٠)، و﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ (النور: ٢٤: ٣١). إنّ الحجاب يساعد العفاف كثيراً، وبينه وبينها علاقة وثيقة. إنّ الشيخ يدافع عن الحجاب الإسلامي، لكنّه يرى أنّ الالتزام ببعض الأعمال الشائعة آنذاك بذريعة الحجاب ليست من العقائد الإسلامية؛ ويقول إنّنا لا نجد نصّاً في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة، وإنّما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم، فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها، وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين (عبده، ب ١٩٩٣م، ص ١٠٥). كان يرى عبده أنّ الشريعة الإسلامية أباحت للمرأة أن تظهر بعض أعضاء من جسمها أمام الأجنبي، غير أنها لم تُسمّ تلك المواضع. وقد قال العلماء: إنّها أوكلت فهمها وتعيينها إلى ما كان معروفاً في العادة وقت الخطاب. واتفق الأئمة على جواز إظهار الوجه والكفين، ووقع الخلاف بينهم في أعضاء أخرى

كالذراعين والقدمين (المصدر نفسه). إنّه هاجم النقاب؛ لأنّه ليس من العقائد الإسلامية، ورأى أنّه وسيلة تسمح للمرأة أن تستغلها لأغراض غير شريفة، وتبقى وراءه شخصيتها مخفية (حسين الدسوقي، ١٩٩١م، ص ١٥٩).

أشعار حافظ إبراهيم فيما يتعلق بالحجاب:

كان حافظ يطالع صفحات الجرائد وما يدور من معارك أثارها قاسم أمين بدعوته إلى رفع الحجاب، وكان يرى ما يتعرّض له من طعن كثير. وكان ظروف المجتمع المصري آنذاك لا تساعد على أن يجهر واحد بمثل هذه الدعوة التي تصادم - في وجوه منها - أحكام الدين، وتأباه الأعراف والتقاليد العربية (عبدالله، د. ت، ص ٩١). إنّ حافظاً أخذ في هذه القضية الهامة طريق التوسط، ولذلك لا يميل ميلاً حاداً إلى أحد الطرفين الموافقين والمخالفين لعقيدة قاسم أمين، ويتكلم بكلمات كانت صدى صوت الشيخ، ويترك الحكم في المسألة للأيام الآتية، وكان رأيه في هذا الأمر كرأي كثير من المستنيرين آنذاك (حسين، ١٩٣٣م، ص ١٥٤)، وكان أشبه بالحجاب الشرعي (كرد علي، ١٩٩٣م، ص ٢٨٢-٢٨٣).

ينقل محمد كرد علي قصيدة لحافظ إبراهيم يتناول فيها آراء قاسم أمين حول السفور والحجاب، ولكنه عند بحثنا عنها في ديوان حافظ، ما وجدناها فيه؛ كما أنّ كرد علي نفسه ذكر أنّه لم يجدها في ديوانه (المصدر نفسه، ص ١٨٧). إن حافظاً يخاطب في هذه الأبيات قاسم أمين، ويذمّ الناس لجهلهم وعدم فهمهم لكتاب *تحرير المرأة*، ويرفض النقاب ويقول:

أَقاسمُ! إنَّ القومَ ما أتت قلوبهم	ولم يفقهوا في السفرِ ما أنتِ كاتبه
إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم	فمن ذا ثناده ومن ذا ثعابه؟!
فلو أنّ شخصاً قام يدعو رجالهم	لوضع نقاب لاستقامت رغائبه
وكو خطرت في مصر حواء أمنا	يلوح محيّاها لنا وتراقبه
وفي يدها العذراء يُسفر وجهها	تصافح منا من ترى وتخطبه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمد	وجيش من الأملاك ماجت كواكبهم
وقالوا لنا: رفع النقاب محلل	لقلنا: نعم حق ولكن نجانبه

(المصدر نفسه)

وفي تلك الأحيان التي كانت المرأة تعيش تحت نير غيرة الرجل، وكان لا يقام لها وزن إلا في القليل النادر، نرى حافظاً يقف في جانبها، ويدافع عن حقوقها، ويهاجم النقاب، ويقول إنّه ليس من المشروعات الإسلامية ولا المسيحية ولا اليهودية.

كثيراً ما يمدح حافظ النساء في أشعاره. وفي قصيدة أخرى يؤكد على رأي محمد عبده وقاسم أمين، ويقول إنّ المستقبل سيثبت

صحة آرائهما:

إن ريت رأياً في الحجاب ولم	تعصم فتلك مراتب الرُّسل
الحكم للأيام مرجعه	فيما رأيت فتم ولا تسل
وكذا طهارة الرأي تتركه	للدهر يُنضجه على مهل

(حافظ إبراهيم، ١٩٨٧م، ص ٤٧٣)

يشبه حافظ في هذه الأبيات صاحب الرأي الذي يرسل رأيه في الناس، ويتركه ينفذ إلى عقولهم شيئاً فشيئاً حتى يثبت، يشبه بطاهي الطعام الذي يضعه على النار تنضجه شيئاً فشيئاً حتى يتم نضجه ويصير صالحاً للتناول. ويؤكد في القصيدة على آراء قاسم أمين، لكنه بقراءة كل القصيدة يتبين أنه لم يدافع عنه بصراحة، ويقول إن دعوته تحمل الصحة، كما تحمل الخطأ؛ ولذلك، فإن الأيام وحدها تستطيع أن تثبت للناس صحة قول قاسم أمين.

إن حافظاً يرفض السماح للمرأة بأن تخوض سافرة معترك الحياة وتصنع صنيع الرجال (عبدالله، د. ت، ص ٩٢)، وكان في ذلك موافقاً لرأي الشيخ.

٢- الزكاة:

آراء محمد عبده في مجال الزكاة:

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة ٢: ٤٣)، وكثيراً ما جعل الزكاة عنوان الإيمان، ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم. يقول محمد عبده:

إنَّ الزَّكَاةَ ركن من أركان الإسلام، وبذل المال في إقامة هذا الركن يفضل غيره من أنواع البذل؛ ولذلك قرنت الزكاة بالصلاة في القرآن في أكثر المواضع. وقد جعل الله إنفاق المال في سبيله آية للإيمان به، وجعل تركه علامة النفاق والكفران، ومع هذا كله نرى المسلمين قد هدموا هذا الركن ونسوه، حتى كأنه ليس من الدين بالمرَّة! (عبده، ج ١٩٩٣ م، ص ١٧٧).

ويقول في مكان آخر:

فرض الإسلام للفقراء في أموال الأغنياء حقاً معلوماً يفيض به الآخرون على الأولين، سداً لحاجة المعدم، وتفريجاً لكربة الغارم، وتحريضاً لرقاب المستعبدين، وتسييراً لأبناء السبيل. ولم يحث على شيء مثل حثه على الانفاق من الأموال في سبيل الخير (المصدر نفسه، ص ٤٦٨).

وكانت له أعمال جليلة في مجال إعانة الفقراء والمستضعفين.

أشعار حافظ إبراهيم في مجال الزكاة:

شبَّ حافظ إبراهيم (١٨٧٢-١٩٣٢م) لأسرة متوسطة، وواجهت عوامل مختلفة جعلته يشعر بالأم شعبه؛ منها وفاة أبيه وهو في الرابعة من عمره، وفقره وبؤسه. إنَّ ارتباط الأديب بقضايا عصره على اختلاف أنواعها، وبمشكلات الحياة في المجتمع الذي يعيش فيه ليس شيئاً غريباً على طبيعة الأديب. والحس المرهف والإدراك السليم للأمر لا يمكن أن يسمحا للأديب أن يعيش في عزلة عن قضايا ومشكلاته (إسماعيل، ١٩٩٦م، ص ٣٧٤)، وخاصة شاعر مثل حافظ الذي ولد في ناحية مظلمة متواضعة من نواحي مصر، لا نصيب لها من بأس ولا سلطان. (حسين، ١٩٣٣م، ص ١٧٠)؛ ولذلك استخدم فنه لإعانة الفقراء. وله قصيدة أنشدها في سنة ١٩١١م للملجأ رعاية الطفل، وقال فيها منوهاً بفضل الزكاة:

لَمَّا قَبْلَ الصَّلَاةِ قَبْلَ الصِّيَامِ

فَهِيَ رُكْنُ الْأَرْكَانِ فِي الْإِسْلَامِ

وَعَلَّمْنَا أَنَّ الزَّكَاةَ سَبِيلَ الدِّ

خَصَّهَا اللَّهُ فِي الْكِتَابِ بِذِكْرِ

لَوْ وَفَى بِالزَّكَاةِ مَنْ جَمَعَ الدُّدَّ
يَا وَأَهْوَى عَلَى اقْتِنَاءِ الحَطَامِ
مَا شَكَ الْجُوعَ مُعْدِمٌ أَوْ تَصَدَّى
لِرُكُوبِ الشُّرُورِ والآثَامِ

(حافظ إبراهيم، ١٩٨٧م، ص ٢٨٧)

فترى حافظاً في هذه الأبيات كيف ينظر إلى الزكاة من منظر إسلامي، وتجدد كالشيخ محمد عبده يؤكد على أنّ الزكاة ركن من أركان الإسلام، ويقول عن اقترانها بالصلاة في النصوص الدينية.

لحافظ أشعار كثيرة يدعو فيها الأثرياء إلى إعانة البائسين. إليك بعض هذه الأشعار:

وَعَدُوا إِلَى الحُسْنَى كَمَا
تَعْدُوا الْمُطَهَّمَةَ العَرَابِ
كَمْ أَسْرَةَ ضَاقَ الرَّجَا
بُهَا وَأَعْيَاهَا الطَّلَابِ
دَقُّوا عَلَيْهَا بِأَبْهَا
وَاللَّيْلُ مَسْدُولُ النَّقَابِ
وَتَعَاهَدُوهَا مِثْلَمَا
يَتَعَاهَدُ النَّبْتَ السَّحَابِ

(المصدر نفسه، ص ٣٠٤)

وحافظ إبراهيم عاش فقيراً، ولم يكن سعيداً لا في مولده ولا في تلمذته ولا في وظيفته، بل كان شقيماً في ذلك كله، متألماً من بؤسه وسوء حاله، وفي ذلك الوقت نفسه كان ذا نفس شاعرة، وحس مرهف، وعارفاً بفضل الذين يساعدون الفقراء؛ ولذلك يمدح محمد عبده لرعايته الفقراء، ولإنشاء جمعيات خيرية تخفف من آلام الناس ومشاكلهم، ويقول:

(جَمْعِيَةٌ خَيْرِيَّةٌ)
قَامَتْ لِتُخَفِّفَ المُصَابِ
قَدْ كَانَ فِيهَا (عَبْدُهُ)
عَوْنًا يُلَيِّئِي مَنْ أَهَابِ
لَمْ يَدْعُ مَسْمَاحًا إِلَى
إِنْعَاشِهَا إِلَّا أَجَابِ

(المصدر نفسه، ص ٣٠٥)

وقد اتخذ فنه وسيلة للتنفيس عن كربة الفقراء وكآبتهم، وتخفيف أثر الشقاء عنهم، وقام بالثناء على أعمال محمد عبده في إعانة الفقراء.

٣- الشورى:

آراء محمد عبده في مجال الشورى:

إنّ شريعتنا شريعة سمحة تأبى أن يتولى أمور ذويها من لا يراعون للشرع حرمة، وتوجب الشورى على كل من الرعية والحاكم جميعاً. ذلك هو الحق. إنّ الله تعالى يطلب من عباده أن يسيروا في سبيل الشورى والتعاون؛ ولذلك يجب على الولاة استشارة ذوي الرأي في مصالح البلاد ومنافع العباد. وإنّ الشورى من الأمور الشرعية الواجبة، فمن رامها فقد رام أمراً شرعياً. ذكر محمد عبده عن النبي ﷺ أنه قال: «
﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي﴾»، وذكر الله ﷻ حكاية عن نبيه موسى ﷺ: «
﴿أَشْرِكُهُ بِأَمْرِي﴾» (طه ٢٠: ٢٩-٣٢). فتراه يقول إنّ الشريعة المطهرة كلفت ولاة الأمور بأن

يأخذوا آراء رعاياهم فيما ينظرون فيه من مظانّ المنافع ومجالبها، مستشهداً على ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران ٣: ١٥٩). ويعتقد أنّ من يتبع الشريعة ونصوصها الواضحة، ووقف على حكمة تنزيل الكتب السماوية، وتدوين الأحاديث النبوية، يرى أن الاستبداد المطلق ممنوع، لحكمة الله في تشريع الشرائع (بدوي، ٢٠٠٥م، ص ٢٠٢). فيتبين أنّ الشورى واجبة (المصدر نفسه، ص ٢٠٧). فإذا ثبت أنه لا مانع لوجود الشورى في بلادنا من جهة أهاليها، بل إنّ حالتهم الآن تقضي بلزوم وجودها (السابق، ص ٢١٢)

أشعار حافظ إبراهيم في مجال الشورى:

إنّ الشورى من القيم التي تمثل مبادئ وقواعد جوهرية في الإسلام، وألح عليها حافظ إلحاحاً شديداً، ويرى أنها طريق الهداية إلى أحسن الأمور، وأنها تحقق المكاييد والمؤامرات؛ فيؤكد على أنّ التخاذل واستبداد الرأي من أسوأ الحالات. قال في إحدى قصائده عن فضل الشورى:

تَزَعُ الْهَوَىٰ وَتَرُدُّ كُلَّ جِمَاحٍ	الفَصْلُ للشُّورَى تَلِكُ هِيَ الَّتِي
خُلِقَ السَّبِيلُ لَهَا بِغَيْرِ نَوَاحِي	هِيَ لَا تَضِلُّ سَبِيلَهَا فَكَأَتَمَا
وَتَقْلُ غَرْبَ الْغَاصِبِ الْمُجْتَاكِ	هِيَ - لَا بَرَّاحَ - تَرُدُّ كِبْدَ عَدُوِّكُمْ
بَعْصَا الْجَمَاعَةَ تَظْفَرُوا بِنَجَاحٍ	وَيَدُ الْإِلَهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ فَاضْرِبُوا
شَيْخَ التَّخَاذُلِ أَنْكَرُ الْأَشْبَاحِ	وَ دَعُوا التَّخَاذُلَ فِي الْأُمُورِ فَإِتْمَا

(حافظ إبراهيم، ١٩٨٧م، ص ٤١٦)

ويمدح الشورى ويعتبره سبيل الفوز والنجاح وسبيل الغلبة على الأعداء؛ لأنّ الله ﷻ يساعد الجماعة المتعاونة في الأمور. ثم يدعو شاعر النيل الناس إلى ترك التخاذل؛ لأن نتائجها من أسوأ النتائج، ويؤكد على هذا الأمر في قصيدة مدحية قائلًا إنّ سعادة البلاد في الشورى وشقاوتها في استبداد الرأي:

جَزَاكَ رَبُّكَ خَيْرًا عَن مُّحِبِّيهَا!	يَا رَافِعًا رَايَةَ الشُّورَى وَحَارِسَهَا
رَغَمَ الْخِلَافِ وَرَأْيِ الْفَرْدِ يُشْتَقِيهَا	رَأْيِ الْجَمَاعَةِ لَا تَشْفَى الْبِلَادُ بِهِ

(المصدر نفسه، ص ٩١)

ويعلل قوة الإنجليزيين باتخاذهم الشورى والتعاون في أمورهم، ويمدحهم وينوّه بهم:

لَوْلَا التَّعَاوُنُ لَمْ تَنْظُرْ لَهُ أَقْرَا	لَا تَعْجَبَنَّ لِمَلِكٍ عَزَّ جَانِبُهُ
عَلَى مَرَاقِبِهِمُ وَالْمَلِكُ قَدْ سَهَرُوا	خَبَرْتُهُمْ فَرَأَيْتُ الْقَوْمَ قَدْ سَهَرُوا

١. تزع الهوى: تكفّه وتزجره.

٢. لا براح: لا ريب. تقل: تتلم وتكسر. الغرب: الحد.

تَشَاوَرُوا فِي أُمُورِ الْمَلِكِ مِنْ مَلِكٍ

إِلَى وَزِيرٍ إِلَى مَنْ يَغْرِسُ الشَّجَرَا

(السابق، ص ١٩)

ويجدر بنا الإشارة إلى أنّ حافظاً إذا مدح الغربيين أو تبرّم بهم، فإنّه يقصد حثّ المصريين على النهوض، وتركية أخلاقهم وعاداتهم (كرد علي، ١٩٩٣م، ص ١٧٠).

٤- الإصلاح الديني :

آراء محمد عبده في مجال الإصلاح الديني :

إنّ أخوف ما كان يخافه المستعمرون هو قوة الشعور الديني الإسلامي في مصر؛ لأنّ الإسلام دين يدعو إلى العزة والكرامة، ويأبى على المسلم أن يخضع لسواه وأن يدلّ. وفي يقظة الشعور الديني استرجاعٌ لماضي هذه الأمة. وقد ابتدأت هذه الحركة الدينية في الظهور منذ عهد جمال الدين الأسدآبادي، وسار محمد عبده على نهجه في تنقية الدين من الخرافات والخزعبلات، والرجوع به إلى بساطته الأولى، وإلى تحييبه للنفوس التي جهلته (الدسوقي، ب ٢٠٠٣م، ص ٢٠٤). إنّه نظم أبياتاً في مرضه الأخير أبان فيها عن غرضه من الحياة وهي :

ولستُ أبا لي أن يُقالَ مُحَمَّدٌ	أبَلُّ أم اِكتَظَّت عليه المائِمُ
ولكنّ دينا قد أَرَدْتُ صَلاحَه	أحاذرُ أن تُقضي عليه العَمامُ
وللتاسِ أَمالٌ يُرَجُونَ نَيْلَها	إذا مَتُّ مائِتٌ وَاضْمَحَلَّتْ عَرائِمُ
فيا رَبِّ إن قَدَرْتَ رُجعى قَريبَةً	إلى عالَمِ الأرواحِ وانقُصْ خاتِمُ
فبارِكْ على الإسلامِ وارزُقْهُ مُرشِداً	رَشيِداً يُضيءُ النُّهجَ واللَّيْلُ قائِمُ

(كرد علي، ١٩٩٣م، ص ٦٣٢)

لا تقصد هذه الدراسة الإفاضة في عرض البناء الفكري الذي أقامه محمد عبده في هذا الميدان، ومدى استفادته من تفسير سور القرآن الكريم وآياته. فلو أراد القارئ دراسة بنائه الفكري، يمكن أن يراجع الجزئين الرابع والخامس من أعماله الكاملة، ولكن ما أردنا الإشارة إليه فيما سبق هو محاولة الشيخ للإصلاح الديني.

أشعار حافظ إبراهيم في مجال الإصلاح الديني :

وقد عالج حافظ كثيراً من الفضائل والقيم الأخلاقية أملاً في الإصلاح، من خلال قصائده في المدح والتهاني والمرثي والوصف والأهاجي. وكان في هذا المجال متأثراً بآراء محمد عبده، وستذكر في السطور الآتية بعض هذه الأشعار التي تنبثق من جوهر الإصلاح الديني أو ترتبط به. إنّه كان يستنكر ما يتعارض مع الدين من خلق وعادات وتقاليد وضلالات... ويشيد بالقيم الدينية الصحيحة، وبيان محاسنها، والدعوة إلى الأخذ بها على مستوى الفرد والجماعة، ويهاجم بشدة على كثير من البدع والضلالات، ويستصرخ الإمام محمد عبده أن يُنقذ هذه النفوس المنحرفة، ويطهرها من هذا الضلال؛ فيقول :

إمامَ الهدى إني أرى القومَ أبدعوا لهمُ بدعاً عنها الشريعةُ تُعرفُ

...

فَأَنْتَ بِهِمْ كَالشَّمْسِ بِالْبَحْرِ إِتْهَا
 ...
 رَأَيْتَكَ فِي الْإِقْتَاءِ لَا تُغْضِبُ الْحِجَا
 فَأَنْتَ لَهَا إِنْ قَامَ فِي الشَّرْقِ مُرٌ
 تَرُدُّ الْأَجَاغَ الْمَلْحَ عَذْبًا فَيُرْشَفُ
 كَأَنَّكَ فِي الْإِقْتَاءِ وَالْعِلْمِ يَوْسُفُ
 وَأَنْتَ لَهَا إِنْ قَامَ فِي الْعَرَبِ مُرٌ

(حافظ إبراهيم، ١٩٨٧م، ص ٢٢-٢٣)

ويدح الشيخ لجهوده في هداية الناس إلى الصواب، وإلى سبيل الإسلام الصحيح، ولأعماله في صحيفة المنار؛ إذ يقول:

أَنْتَ عَلَّمْتَنَا الرَّجُوعَ إِلَى الْحَقِّ
 ثُمَّ أَشْرَقْتَ فِي (الْمَنَارِ) عَلَيْنَا
 فَقَرَأْنَا عَلَى ضِيَائِكَ فِيهِ
 وَ سَكْنَا إِلَى الَّذِي أَنْزَلَ اللَّ
 قِ وَرَدُّ الْأُمُورِ لِلْأَسْبَابِ
 بَيْنَ نُورِ الْهُدَى وَنُورِ الصَّوَابِ
 كَلِمَاتِ الْمُهَيَّمِنِ الْوَهَّابِ
 لَهُ وَكُنَّا مِنْ قَبْلِهِ فِي ارْتِيَابِ

(المصدر نفسه، ص ٢٥)

إن حافظاً أوقع أنغماً كثيرة على قيثاره أشعاره في مجال القيم الدينية. يقول شوقي ضيف: إن أقوى هذه النغمات التي كان يوقعها على قيثارته أو على هذا الوتر الإسلامي أشعاره في الشيخ محمد عبده، وكان لذلك أثر عميق في نفس حافظ. فأخذ يُشيد بالشيخ، ويدعوه الإصلاحية، وكل ما اتصل بها من فتح باب الاجتهاد في الدين، وتخليصه مما علق به من الأوهام والخرافات. يُهيب حافظ بالشيخ في أشعاره أن يقضي على البدع المستحدثة، ويشيد بفتاويه الصائبة (ضيف، ١٩٨٧م، ص ١٨٤).

وفي قصيدة أخرى يرى حافظ الشيخ أميناً على الإسلام بقوله:

يَا أَمِيناً عَلَى الْحَقِيقَةِ وَالْإِفِّ
 أَنْتَ نَعَمَ الْإِمَامُ فِي مَوْطِنِ الرَّأْيِ
 تَاءِ وَالشَّرْعِ وَالْهُدَى وَالْكِتَابِ
 سِي وَنَعَمَ الْإِمَامُ فِي الْمَحْرَابِ

(السابق، ص ٢٤)

ويصب حافظ في أشعاره سباط غضبه على خصوم الإمام من الشيوخ وغيرهم، مدافعاً عنه دفاعاً حاراً؛ وما يلبث أن يلبي محمد عبده داعي ربه، فيرثيه حافظ رثاءً يضطرم بناير موقدة من اللوعة والأسى، ويذكر أعماله في مجال الدين:

تَبَارَكَتَا هَذَا الدِّينُ دِينُ مُحَمَّدٍ
 تَبَارَكَتَا هَذَا الْعَالَمُ الشَّرْقِيُّ قَدْ قَضَى
 أَيْتَرَكُ فِي الدُّنْيَا بَعِيرَ حُمَاةٍ؟
 وَلَا تَنْتَ قَنَاةُ الدِّينِ لِلْعَمَزَاتِ

...

وَوَقَّعْتَ بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ وَالْحِجَا
 ...

وَ خَفَّتْ مَقَامَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ

فَخَافَكَ أَهْلُ الشُّكِّ وَالنُّزَغَاتِ

...

بَكَى عَالَمَ الْإِسْلَامِ عَالِمَ عَصْرِهِ

سِرَاجَ الدِّيَاجِي هَادِمَ الشُّبُهَاتِ

...

وَا يَا وَيْحَ الْفُتْيَا إِذَا قِيلَ مَنْ لَهَا؟!

وَا وَيْحَ لِلْخَيْرَاتِ وَالصَّدَقَاتِ!

(المصدر نفسه، ص ٤٦١-٤٦٢)

وَتَظَلَمَ الدُّنْيَا فِي عَيْنِي حَافِظٌ ؛ كَأَنَّ الدِّينَ أَصْبَحَ بِلَا حُمَاةٍ ، فَقَدْ تُوْفِّي حَامِيهِ ضِدَّ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ الطَّاعِنِينَ فِيهِ . وَيَقُولُ إِنَّ عَالَمَ الْإِسْلَامِ بَكَى لِمَوْتِ الشَّيْخِ ، وَأَنَّ لِلْفَجِيعةِ فِيهِ أُنَيْنًا مُتَصِلًا غَيْرَ مُنْقَطِعٍ .

٥- الجهاد :

آراء محمد عبده في مجال الجهاد :

من الأمور التي أعطاها القرآن أهمية كبيرة مسألة الجهاد ؛ فلذلك تكثر فيه الآيات التي تأمر بالجهاد ، وتحث عليه . ومن هذه الآيات ما يلي : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة ٥ : ٣٥) . و في مكان آخر خطب رسول الله ﷺ بصفته قائداً للمجتمع الإسلامي ، وطلب منه أن يحث الناس على قتال العدو : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ (الأنفال ٨ : ٦٥) ، و : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ (التوبة ٩ : ٧٣) .

ذكر الجهاد في القرآن بمعنيين :

أ. الجهاد بمعناه العام ؛ ب. القتال . إنَّ الجهاد بمعناه العامّ يشمل أنواع الجهاد ؛ سواء كان ضدَّ العدوِّ الخارجي أو الداخلي (النفس) ؛ وسواء كان الجهاد بالمال أو البيان أو القلم وغير ذلك .

إنَّ الشَّيْخَ كَانَ عَارِفًا بِالْجِهَادِ بِمَعْنِيهِ ، فَيَقُولُ : «أَمَّا الْمَجَاهِدَةُ ، فَهِيَ مِنَ الْجَهْدِ ؛ وَهِيَ الْمَشَقَّةُ وَليْسَ خَاصًّا بِالْقِتَالِ» (عبده، د ١٩٩٣ م، ص ٥٦٠) . ولعلَّه كان يرجح أنذاك الجهاد بمعناه العامّ ؛ حيث يشكو عن عدم الجهاد والكدح للشبان في سبيل المصلحة العامة (عبده، ١٩٩٣ ، ص ٨٣) ، لكنَّه لم يكن ممن ينكرون القتال مع الأعداء . فتراه يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ (النساء ٤ : ٧٤) :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَّمَ بِهَذِهِ الْآيَةِ الَّذِينَ يُبْطِئُونَ عَنِ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ . لضعف الإيمان - طريقة تطهير النفوس من ذلك الذنب العظيم : ذنب

العودة عن القتال في سبيله . ولو عملوا كلَّ صالح وضعفت نفوسهم عن القتال ، لما كان ذلك مكفراً لخطيئتهم (عبده، هـ ١٩٩٣ م،

ص ٢٤١) .

لكنَّه كيف يمكن للذي يفسر هذه الآية بهذه الكلمات أن يقول : «نحن لا يهمننا أن يبقى الإنجليز عاماً أو عامين أو خمسة أعوام ، ماداموا لن يبقوا إلى الأبد . وجودهم حالياً خيراً للبلد حتى يجتمع حزب الفلاح» !!! (عبده، ١٩٩٣ ، ص ٧٨٧) .

في الحقيقة كان يعتقد الشيخ بالترجّح في الإصلاح السياسي (رشيد رضا، آ ١٩٣١ م، ص ١٤٦) وخاصة بعد فشل ثورة العراقي ، ونفيه إلى بيروت ، ثم إخفاق جمعية «العروة الوثقى» ، وإقبال جريدتها ، أصبح يشكّ في الإصلاح بمفهومه السياسي . فرجع إلى الإصلاح الفكري لرفع الوعي الاجتماعي في العالم الإسلامي عن طريق الدين الصحيح (حسين الدسوقي، ب ٢٠٠٣ م، ص ٨٧) .

إنّ الشيخ إن لم يدخل المعركة المباشرة ضدّ الأعداء، ولكن جاهدتهم بصورة غير مباشرة عن طريق محاولاته لإصلاح الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية وعن طريق الجرائد (المصدر نفسه، ص ٣٣)، وكان يعتبر إخراج الإنجليز من مصر عملاً كبيراً (المصدر نفسه، ص ٣٧)، لكنه يدعو إلى الإصلاح البطيء، ويكره الطفرة (أمين، ١٩٦٨م، ص ٦٠؛ الدسوقي، ب ٢٠٠٣م، ص ١٠٦). وكان كثير من زعماء الأمة يشاركون في رأيه السياسي حينذاك (رشيد رضا، ب ١٩٣١م، ص ٢٢٤).

أشعار حافظ إبراهيم في مجال الجهاد:

وحّد الاحتلال الإنجليزي فئات المصريين ونفوسهم في إحساس واحد وغاية واحدة، هما بغض المحتلّ الغاصب والجهاد على الخلاص منه. في جهاد الشعب المصري من أجل التحرّر برز رجال حملوا أثقل أعباء هذا النضال، ودعوا الناس إلى جهاد المحتلّين. فاستحقوا حبّ الشعب. إذا دخل شاعر هذه المعركة ودعا الناس إلى الجهاد، لم يقلّ في تقدير الشعب ونظر المحتلّ عن خطر الزعيم. إنّ حافظاً شأن كلّ إنسان يريد العيش بالحرية والكرامة، وكلّ مسلم غيور. كان لا يطيق حضور الأجانب في وطنه. إنّ استطاع من خلال رثاء الزعماء أن يجعل شعره منابر للدعوة الوطنية، يثير من فوقها الهمم لمواصلة الجهاد (عبد الله، د. ت، ص ١١٧). وقد يهاجم الإنجليز بأشعاره بصورة مباشرة، ويدعو الشعب إلى الجهاد.

في سنة ١٩٣٢ للميلاد ساهم الإنجليز مع العناصر الرجعية في إلغاء الحياة الدستورية، وتظاهروا بأنهم على الحياد في هذه المحنة. وقد هاجمهم حافظ بقصائد رائعة نعى فيها عليهم بغيهم وعدوانهم. وفي إحدى قصائده عنوانه «نحن والإنجليز وجهاً لوجه» يتكلم عن الجهاد حيث يقول:

قُلْ لِلْمُحَايِدِ هَلْ شَهِدَتْ دِمَائُنَا
تَجْرِي وَهَلْ بَعْدَ الدِّمَاءِ سَلَامٌ؟
إِنَّا جَمَعْنَا لِلْجُهُودِ صُفُوفَنَا
سَنَمُوتُ أَوْ نَحْيَا وَنَحْنُ كِرَامٌ

(حافظ إبراهيم، ١٩٨٧م، ص ٤١٩)

إنّه يهدّد المحتلّين الغاصبين بشعره، ويدعو إلى قتالهم من أجل حياة كريمة أو موت شريف. وفي قصيدة أخرى يدعو إلى الجهاد بقوله:

وَسَالَمْتُمْ وَعَادَيْتُمْ زَمَانًا
فَلَمْ يُعْنِ الْمَسَالِمُ وَالْمُعَادِي
فَلَيْسَ وِرَاءَكُمْ غَيْرُ التَّجَنِّي
وَلَيْسَ أَمَامَنَا غَيْرُ الْجِهَادِ

(المصدر السابق، ص ٤٢٢)

إنّه كان ينوّه الشعوب التي تقاوم الأعداء بكلّ ما يملكون. فنظّم سنة ١٩٠٤ للميلاد قصيدة رائعة عن «غادة اليابان»، ضرب فيها الأمثال في التضحية والجهاد، وجعلها على لسان الفتية اليابانية، وأشاد بشجاعتهما في الحرب التي شبّت بين بلادها وروسيا سنة ١٩٠٤ للميلاد؛ إذ ذهبت متطوّعة إلى ميادين القتال تُواسي الجرحى. إليك بعض أبيات هذه القصيدة:

كُنْتُ أَهْوَى فِي زَمَانِي غَادَةً
وَهَبَ اللَّهُ لَهَا مَا وَهَبَا
ذات وجه مزج الله به
صفرةً تُنسى اليهودَ الذّهابا
حملت لي ذات يوم نبأ
لا رعاك الله! يا ذاك التّبا!
وأنت تخطر والليل فتى
وهلال الأفق في الأفق حبا

ثم قالت لي بثغرٍ باسم
 نبئوني برحيل عاجل
 ودعاني موطني أن أعتدي
 نذبح الدُّبَّ وتُفري جَلده
 قُلْتُ والالامُ تُفري مُهَجَّتِي
 ما عهدناها لظيبي مسرحاً
 ليست الحربُ نفوساً تشتهي
 أحسبت القَدَّ من عُدَّتْها
 فسَليني إنني مارسُها
 فأجبتني بصوت راعني
 إنَّ قومي استعذبوا وِردَ الرُدى
 أنا إن لم أحسن الرمي ولم
 أخدم الجرحى وأقضي حقهم
 نظم الدرّ به والحبا
 لا أرى لي بعده منقلباً
 عليّ أقضي له ما وجبا
 أيظنّ الدُّبُّ أن لا يُغلباً؟
 ويكلاً ما تصنعُ في الحربِ الطُّبا؟
 يبتغي ملهًى به أو ملعباً
 بالثمتى أو عقولا تُستهي
 أم حسبت اللُحظَ فيها كالشُّبا
 وركبتُ الهولَ فيها مركبا
 وأرثني الظنبي ليثاً أغلباً
 كيفَ تدعونني ألاً أشرباً؟
 تستطع كفاي تقلابَ الطُّبا
 وأواسي في الوغى من نُكبا

(المصدر نفسه، ص ٣٢٣)

و إذا مدح حافظ المرأة اليابانية بمثل هذه الأبيات لقتاله الأعداء، فواضح أنّ حرصه لنضال أبناء بلده المحتلين كان أشدّ. فكان من المتوقع أن يكون صوت الشاعر في مسألة قتال الأعداء أقوى، وأن يفصح لنا في عبارة قوية آرائه حول الجهاد، لكنّ القارئ يفاجأ في مواقف الشاعر بمستويات متباينة من الشعور، وبآراء غريبة في نظرتة إلى المحتلّ. ورغم ما يتوقّع منه القارئ في الدعوة إلى نضالهم، يراه يمدحهم في قصيدة عنوانها «تهنئة جلاله إدوارد السابع بتتويجه»، حيث يقول:

يا دولةً فوقَ أعلام لها أسدٌ
 تخشى بوادره الدنيا إذا زاراً
 ...
 من ذا يُناويك والأقدارُ جاريةٌ
 إذا ابتسمت لنا فالدهرُ مُبتسِمٌ
 وما تشائين، والدنيا لمن قهراً؟
 وإن كثررت لنا عن نابه كَثراً

(المصدر السابق، ص ١٨)

إنّ هذا السلوك أذى نفوس كثيرين، وخيب ظنهم وتوقعاتهم في شاعر النيل؛ كما عرضّه لكثير من النقد اللاذع (عبدالله، د. ت، ص ١١٧)، ولكنه في الحقيقة لم يكن حافظ من أنصار الإنجليز، ومن أعداء الشعب والنضال والجهاد، بل لهذا السلوك سببان: الأول خوفه من الإنجليز؛ كما يقول: «إني أخاف السّجن ولست أحتلمه» (واصف، ١٩٩٨م، ص ٦١)، وبهذا الشعر:

فإن نطقتُ ففأع السّجن مُتكاماً
 وإن سكنتُ فإنّ النفسَ لم تطيب

(المصدر نفسه، ص ٤٣٢)

وأما السبب الثاني فمرجعه تأثره بمحمد عبده، وإنّ هذا الاحتياط في معاملة الإنجليز جاء من الطبقة المثقفة الممتازة؛ منهم محمد عبده (محمد عويضة، ١٩٩٣م، ص ٣١).

وكان هدف حافظ من مثل هذه الأشعار دعوة شعبه إلى التقدّم مثل الغربيين (كرد علي، ١٩٩٣م، ص ١٧٠). مع هذا كلّه، إنّ حافظاً سائر الشعب المصري في نضاله المحتلّين، وفي القضاء على تخلفه ومصائبه. ولعلّ حافظاً كان كالشيخ من المعتقدين بأنّ الجهاد بمعناه العامّ أنفع للبلاد من القتال آنذاك؛ ولذلك استخدم فنّه لهذا الأمر، وبذل جهده في القضايا الاجتماعية. وكثرة قصائده في تنويه العلم والأخلاق والحماية عن الفقراء والإشادة بتأسيس المدارس والجمعيات الخيرية الإسلامية خير دليل على هذا الاعتقاد.

٦- التسامح الديني:

آراء محمد عبده في مجال التسامح الديني:

إنّ الإسلام دين المودّة والرحمة، ويصدّق سائر الأديان الإلهية، ويكرّم جميع أنبياء الله تعالى. وفي تعاليمه أقرب النّاس إلى الله أتقاهم، ويحترم حقوق أهل الكتاب. ومن ذلك يمكن الإشارة إلى أنه أباح للمسلم أن يتزوَّج أهل الكتاب نصرانية كانت أو يهودية، ولم يفرّق في الحقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة وغير المسلمة من أهل الكتاب؛ ولذلك لم يخرج الزوجة غير المسلمة من أهل الكتاب باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم ٣٠: ٢١).

في الفترة التي عاشها محمد عبده كانت سياسة الإنجليز تأجيج نار الخلاف، واختلاق الأزمات بين طوائف الأمة، للوصول إلى مطامعهم المشؤمة (عبد الله، د. ت، ص ٨٤)، والشيخ كان عارفاً بمقاصد المحتلين. فيدعو النّاس إلى الوحدة الوطنية، ونبذ الشقاق، ويعدّ أصل التسامح والرضى بمجاورة المخالف في الرأي أصلاً عظيماً (محمد عبده، ج ١٩٩٣م، ص ٣٥٣). وكان يتكلّم عن الزمان الماضي والخلفاء والأمراء المسلمين والمتكلمين والمحدّثين والفقهاء، ويقول: «كلّ مقبل على عمله. فإذا فرغ عامل من العمل، أقبل على أخيه، ووضع يده في يده يصفح الفقيه المتكلّم والمحدّث...» (المصدر نفسه، ص ٣٥٧). ويذكر أنّ المسلمين الأوائل لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى ومن اليهود على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام، وأعطوهم المناصب في الدولة (السابق، ص ٢٦٩). إنّه كان يعتقد أنّ الأديان اتّفقت على التوحيد، ويستدلّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى ٤٢: ١٣).

كان الشيخ يرى أنّ مصدر اختلاف الأديان في العبادات رحمة الله في إيتاء كلّ أمة وكلّ زمان ما علم فيه الخير للأمة والملائمة للزمان، وكان يرفض التعصبات الفرقيّة؛ ولذلك بذل جهده للتقريب بين الأديان، وأسّس «جمعية التقريب بين الأديان والمذاهب». وكان العلماء والأدباء وأهل النصرانية يذهبون إلى هذه المجالس، وكان الشيخ يؤكد على وحدة الأديان الإلهية، وعن وجوب اتّحاد المسلمين والنصرانيين واليهوديين (عبده، ج ١٩٩٣م، ص ٤٥٨).

أشعار حافظ إبراهيم في مجال التسامح الديني :

كانت الوحدة الوطنية من أهمّ القضايا في حياة المصريين ، والاختلاف بين العقائد الدينية كان باباً يمكن أن يدخل منه الشرّ والفرقة إلى المجتمع المصري. ولا بدّ من سدّ هذا الباب. فلأدباء مصر وعلمائها جهود كثيرة للاتحاد بين المسلمين والأقباط^١. فكانوا يحدثون الناس عن سماحة الأديان ، ويذكرونهم بتاريخ مصر الحافل بتآلف الصليب والهلال (عبدالله، د. ت، ص ٨٤). وفي غمرة الفتنة الطائفية التي كان الإنجليز يشعل ناراها ، راح الشعراء الكثيرون يدعون الطرفين إلى استبدال وحدة الوطن التي تجمع شملهم بثنائية الدين التي تُفسد ألفتهم ، وكان لحافظ إسهام بارز في هذا المجال (المصدر نفسه، ص ٨٥) ؛ خاصة إنّه كان على مودّة مع كثير من الأقباط ، وكان يحضر معهم في المحافل وليالي السمر. فيقول لهم الشعر والنادرة ، وإذا كان يغيب عنهم ، يفقدونه ويلتمسون أخباره (الرمادي، د. ت، ص ٢١٨). إنّه كان يحسّ بالخلل والاختلاف الذي ظهر في الأمة ، فيستحثّ الخديوي عباس الثاني لسدّ هذا الخلل بقوله :

مَولاي! أمّك الوديعَة أصبَحَت	وعُرى المودّة بينها تَنفصَم
نادى بها القُبْطِيّ ملءَ لهاثِه	أن لا سَلامَ وضاقَ فيها المسلم
وهمّ أعارَ على التُّهَى وأصلَّها	فَجَرى العَبِيّ وأقصرَ المُتعلِّم
فَهُموا من الأديانِ ما لا يَرتَضِي	دينٌ ولا يَرضى به من يَفهم

(حافظ إبراهيم، ١٩٨٧م، ص ٢٩١)

كان يرى أنّ اختلاف الأديان لا يجب أن يكون سبباً في تكدير الحياة ؛ لأنه يمكن أن يثير الفتن ويحدث الشغب. ولم يفتأ يهيب حافظ بالمسلمين والمسيحيين في كلّ بلد عربيّ - لا في مصر وحدها - أن يطهروا قلوبهم من الأحقاد. فيقول لأبناء لبنان :

يا قومَ إنجيلِ عيسى	وأمةَ القرآنِ
لا تَقْتُلوا الدَّهرَ حِقْداً	فالملكُ للدِّيانِ

(حافظ إبراهيم، ١٩٨٧م، ص ٣٨٧)

وبمثل هذه الروح المتسامحة التي تتجاوز حدود الدين ، راح حافظ يرثي صديقه الدكتور شبلي شَميّل الذي لم يكن مسلماً ، وبنوّه أخلاقه النبيلة ؛ ثم يردّ على الذين يتوقعون استنكاره إياه بأشعاره (عبدالله، د. ت، ص ٨٦) ؛ فعبر حافظ في ردّه عن عاطفة رحبة اتّسعت لتضمّ ذوي الخصال الحميدة على أي عقيدة كانوا.

يرى حافظ أنّ هذه القيم التي تُطرح بسببها العصبية دينية أو عرقية يمكن أن توحد المستضعفين في أمم الشرق - أدناها

وأقصاها - لدّرع خطر الغرب الطامع في ثرواتهم. فيقول :

مَتى أرى الشُّرْقَ أدناه وأبعده	عن مَطَمَعِ الغرب فيه غَيْرَ وَسْتانِ
تَجري المودّة في أعراقه طُلُقا	كجزيّة الماء في أثناء أفنانِ
لا فرقَ ما بين بُوذِيّ يعيشُ به	ومُسلمٍ ويهوديٍّ ونُصْرانيّ

(حافظ إبراهيم، ١٩٨٧م، ص ١٣٨-١٣٩)

كان حافظ ينوّه اليابانيين لنجاحهم في العلم والحرب، وإن لم يكونوا على دين الإسلام. وكان حرصه أشدّ في تحقيق الألفة بين أبناء وطنه من أيّ دين كانوا.

٧- التوسل إلى الأنبياء والأولياء وزيارة أضرحتهم:

آراء محمد عبده في مجال التوسل إلى الأنبياء والأولياء وزيارة أضرحتهم:

التوسل هو اتخاذ الوسيلة توصلاً إلى شيء؛ والوسيلة «التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوصيلة؛ لتضمنها معنى الرغبة» (الراغب، ١٤١٦هـ، ص ٥٦٠). «فيقال: وسّلت له إلى الله وسيلة فتوسّل بها؛ أي: جعلت له في السير إلى الله تعالى وفي طلب قربه ورضاه وسيلة، فأطاع واختار الوسيلة وتمسك بها» (المصطفوي، ٢٠٠٩م، ص ١١٨). وقد أمر الله تعالى بالتوسّل إليه، وأثنى على المتوسّلين إليه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة ٥: ٣٥)؛ و: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ (الإسراء ١٧: ٥٧).

إنّ الآية الأولى لا تأمر باتخاذ الوسيلة إلى الله تعالى فحسب، بل بابتغاء الوسيلة إليه تعالى، والابتغاء من "البغي"، وهو «الطلب الشديد الأكيد. والابتغاء: اختيار هذا الطلب» (المصطفوي، ٢٠٠٩م، ص ١١٨).

لا تهدف هذه الدراسة إلى تبيين حقيقة التوسّل وشرح أنواعه، وذكر الآيات والأحاديث التي تؤكّد عليه، ولا إلى ذكر النصوص الشرعية التي تدعو إلى ولاية أولياء الله، وقبول الأعمال التوسّلية وأهلوية أهل بيت النبوة عليهم السلام للإيصال إلى الله تعالى؛ لأنّه لا تتسع هذه العجالة السريعة مثل هذه الأقوال، بل تهدف إلى تبيين آراء محمد عبده في مجال التوسل إلى أولياء الله تعالى، وزيارة أضرحتهم، وتأثير هذه الآراء في أشعار حافظ إبراهيم.

كان الشيخ يرى أنّه لم يكن في القرون الثلاثة الأولى من الإسلام شيء من هذا التوسّل، ولا ما يشبهه بوجه من الوجوه، وكتب السنّة والسير بين أيدينا شاهدة بذلك. فكلّ ما حدث بعد ذلك فأقلّ أوصافه أنّه بدعة من الدين ... ويرى أنّ تعظيم الأولياء يكون باختيار ما اختاروه لأنفسهم، لا بتفخيم الألفاظ عند ذكرهم، واختراع شؤون لهم مع الله لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وآله (عبده، ج ١٩٩٣م، ص ٥٣٧). ويقول إنّ اعتقاد النّاس بأنّ للنبي صلى الله عليه وآله والأولياء جاهاً عند الله تعالى له معنيان: الأوّل معناه اللغوي فهو السلطة، وإنّه مبتدع بعد القرون الثلاث، وفيه شبهة الشرك؛ والثاني أنّه مؤوّل بصفة من صفات الله كالاجتباء والاصطفاء، وإنّه لا علاقة له بالدعاء، ولا يمكن لتوسّل أن يقصده في دعائه. وكان يعتبر الشيخ زيارة الأضرحة من أعمال الوثنيين، ويرى أنّ الإسلام يأباه، وذات مرّة نهى أحد وجهاء المصريين عن زيارة أحد أولياء الله (المصدر نفسه، ص ٥٣٥).

وأجاب في سؤال أحد مسؤولي الأوقاف عن جواز هدم القبّة التي كانت في شارع مطروق ليلاً ونهاراً، معرّضة للقاذورات أجاب قائلاً: «المروى عن الإمام أبي حنيفة أنّ بناء بيت أو قبّة على القبر مكروه؛ وذلك يدلّ على أن لا بأس بهدم القبّة المذكورة، بل إنّه الأولى. فإذا كانت تجتمع حولها القاذورات واعترضت في الطريق، تأكّدت الأولوية» (عبده، ب ١٩٩٣م، ص ٥١٨).

لا بدّ من الذكر بأنّ هذه الدراسة لا تهدف إلى نقد آراء محمد عبده في هذا المجال، والإجابة عن أقواله، بل كلّ ما تريده هو نقل آراء الشيخ حول هذه المسائل.

أشعار حافظ إبراهيم فيما يخصّ التوسل إلى الأنبياء والأولياء وزيارة أضرحتهم:

إنّ حافظاً نشأ في المجتمع المصري، وقضى شطراً طويلاً من حياته في مدينة طنطا؛ حيث كان النَّاسُ يحتفلون أسبوعاً تاماً من كلّ عام بمولد السيد أحمد البدوي. ثم انتقل إلى القاهرة، وتنقّل في أنحاء مصر؛ فوجد أنّ عادة الاحتفال بأولياء الله تعالى تضرب في نفوس المصريين بجذور أعمق، وأراد أن يعبرَ عما يعبره من الغيورين على العقيدة (عبدالله، د. ت، ص ٦٨)، ومن أقوال محمد عبده واضح أنّه كان من هؤلاء الغيورين على عقيدتهم. إنّ حافظاً يقول:

وألف ألف تُرزِقُ الأموات	أحيائنا لا يُرزِقونَ بدرهم
قامت على أحجارها الصلوات	من لي بحظّ النَّائمينَ بحفرة
بخرُ النُّذورِ وتقرأ الآيات	يسعى الأنامُ لها ويجري حولها
ووسيلةٌ تُقضى بها الحاجات	ويقالُ هذا القطبُ بابُ المصطفى

(حافظ إبراهيم، ١٩٨٧م، ص ٣١٨)

إنّ حافظاً لا ينكر قدر أولياء الله الذين ثبت جهادهم، وإلّا ينكر أن يتخذهم البشر وسيلة للتقرب إلى الله لقضاء الحاجات. إنّ هذه العادة كانت تثير جدلاً من حين لآخر بين أنصارها والغيورين على عقيدة أهل السنة. وفي موضع آخر ترى حافظاً يهيب بمحمد عبده لمقاومة هذه العادة ويقول:

لهم بدعاً عنها الشريعة تُعزفُ	إمام الهدى لآتي أرى القومَ أبدعوا
ترقُّ إذا أشرفتَ فيها وتلطفُ	فأشرقَ على تلك النفوسِ لعلها
فقاموا إلى تلك القبورِ وطوفوا	رأوا في قبورِ الميّتِ حياتهم
على صنمٍ للجاهلية عكفُ	وباتوا عليها جاثمينَ كأنهم

(السابق، ص ٢٢)

فيذمّ الذين يذهبون إلى زيارة أضرحة الأولياء، ويشبه عملهم بأعمال الجاهلية، ويريد من الشيخ أن يقضي على هذا الأمر.

النتيجة

لا تريد هذه الدراسة مدح الشاعر أو ذمه أو نقد آرائه، بل كلّ ما ترمي إليه هو تبيين وجوه تأثيرات محمد عبده في أشعار حافظ إبراهيم الدينية. فشاعر النبيل تأثر بأستاذه محمد عبده في أشعاره الدينية، وإنّ هذه التأثيرات ظهرت في الحجاب والزكاة والشورى والإصلاح الديني والجهاد والتسامح الديني والتوسل إلى أنبياء الله وأوليائه ﷺ وزيارة أضرحتهم. وفي مسألة الحجاب نرى أشعاره مماثلة بآراء الشيخ، وكأنّ حافظاً ينضد آراء الشيخ. إنّ ينوّه أعمال محمد عبده في مجال الإعانة إلى الفقراء، ويحثّ الناس على الزكاة. يرى حافظ أنّ الشورى سبيل النجاح وتقدم البلاد، ويهاجم البدع الدينية المستحدثة، ويمدح الشيخ لجهوده في سبيل إزالة الأوهام والخرافات التي دخلت في الدين وعادات الشعب.

إنّه كان يريد من شعبه المقاومة ضد الأعداء، ويدعو إلى الجهاد، ويحضّ النَّاسَ على الوحدة الوطنية، ونبذ الشقاق، ويحسّ بأنّ الاختلاف بين العقائد الدينية يمكن أن يصبح مشكلة عظيمة؛ ولذلك قام لسدّ هذا الباب بأشعاره.

إنَّ حافظاً يحترم أولياء الله، لكنّه ينكر التوسل بهم، ويرفض اختيارهم وسيلة للتقرب إلى الله، ويعتبر زيارة الأضرحة من أعمال الوثنيين. إنَّ الأمر الذي لا يمكن إغماض العين عنه، هو أنَّ حافظاً كان في نفسه مائلاً إلى تنويه هذه القيم، ومع ذلك كان متأثراً بآراء محمد عبده؛ وكان لهذه الآراء أثر كبير في أشعاره.

إنَّ حافظاً لم يكن تابعاً لآراء الشيخ في كلِّ أشعاره، ووجود الحمريات والغزليات خير حجة ودليل على ذلك. ولو كان تابعاً لآراء الشيخ بصورة كاملة، للزم أن يكون ديوانه خالياً من هذه الأشعار.

إنَّ آراء الشيخ في هذه المجالات التي سبق ذكرها كان أعمق من آراء حافظ إبراهيم.

إنَّ الشاعر لا يحتاج إلى من يدفعه إلى التعبير عن القيم الدينية، لكنّه ليس في غنى عمّن يرشده في هذه الأمور، وليس حافظ إبراهيم يستثنى عن هذا الأمر؛ خاصة أنّه كان ضيق الثقافة، وفي حاجة ماسّة إلى هذا الإرشاد؛ ولذلك أخذ قسماً عظيماً من ثقافته عن طريق تعاليم الشيخ.

BBB

المصادر والمراجع

• القرآن الكريم.

- ١- إسماعيل، عز الدين. (١٩٩٦م). *الشعر العربي المعاصر وقضاياها وظواهره الفنية والمعنوية*. بيروت: دار الثقافة العربية.
- ٢- أمين، عثمان. (١٩٦٨م). *محاولات فلسفية*. (ط ٢). القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- ٣- بدوي، عبدالرحمن محمد. (٢٠٠٥م). *الإمام محمد عبده والقضايا الإسلامية*. القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة.
- ٤- حافظ إبراهيم، محمد. (١٩٨٧م). *الديوان* (ضبطه وصحّحه وشرحه ورّبه أحمد أمين، وأحمد زين، وإبراهيم الأبياري). (ط ٣). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ٥- حافظ إبراهيم، محمد. (١٩٩٧م). *ليالي سطوح*. القاهرة: دار الفكر العربي.
- ٦- حسين الدسوقي، منى. (١٩٩١م). *الشيخ مصطفى الغلاييني في مفاهيمه الإصلاحية: دراسة مقارنة بينه وبين الشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده*. (ط ١). بيروت: المكتبة العصرية.
- ٧- حسين، طه. (١٩٣٣م). *حافظ وشوقي*. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- ٨- الدسوقي، عمر. (٢٠٠٣م): *في الأدب الحديث*. (ج ١). (ط ٢). بيروت: دار الفكر.
- ٩- _____ (ب ٢٠٠٣م): *في الأدب الحديث*. (ج ٢). (ط ٢). بيروت: دار الفكر.
- ١٠- الراغب الإصفهاني، حسين بن محمد. (١٤١٦هـ). *مفردات ألفاظ القرآن*. (تحقيق صفوان عدنان داودي). (ط ١). بيروت: دار القلم؛ دمشق: الدار الشامية.
- ١١- الراجحي، عبدالرحمن. (١٩٦٦م). *شعراء الوطنية في مصر*. (ط ٢). القاهرة: دار المعارف.
- ١٢- رشيدرضا، محمد. (١٩٣١م). *تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده*. (ج ١). (ط ١). القاهرة: مطبعة المنار.
- ١٣- _____ (ب ١٩٣١م). *تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده*. (ج ٣). (ط ١). القاهرة: مطبعة المنار.
- ١٤- الرمادي، جمال الدين. (د.ت). *من أعلام الأدب المعاصر*. القاهرة: دار الفكر.
- ١٥- سند الجندي، عبد الحميد. (١٩٩٢م). *حافظ إبراهيم شاعر النيل*. (ط ٤). القاهرة: دار المعارف.

- ١٦- ضيف، شوقي. (١٩٦١م). *الأدب العربي المعاصر في مصر*. (ط ١٠). القاهرة: دار المعارف.
- ١٧- _____ . (١٩٨٧م). *في التراث والشعر واللغة*. القاهرة: دار المعارف.
- ١٨- عبدالله، السعيد محمود. (د.ت). *حافظ إبراهيم: دراسة تحليلية لسيرته وشعره*. القاهرة: طباعة مركز الدلتا.
- ١٩- عبده، محمد. (١٩٩٣م). *الأعمال الكاملة*. (جمعها وحقّقها وقدم لها محمد عمارة). (ج ١). (ط ١). بيروت: دارالشروق.
- ٢٠- _____ . (ب ١٩٩٣م). *الأعمال الكاملة*. (جمعها وحقّقها وقدم لها محمد عمارة). (ج ٢). (ط ١). بيروت: دارالشروق.
- ٢١- _____ . (ج ١٩٩٣م). *الأعمال الكاملة*. (جمعها وحقّقها وقدم لها محمد عمارة). (ج ٣). (ط ١). بيروت: دارالشروق.
- ٢٢- _____ . (د ١٩٩٣م). *الأعمال الكاملة*. (جمعها وحقّقها وقدم لها محمد عمارة). (ج ٤). (ط ١). بيروت: دارالشروق.
- ٢٣- _____ . (هـ ١٩٩٣م). *الأعمال الكاملة*. (جمعها وحقّقها وقدم لها محمد عمارة). (ج ٥). (ط ١). بيروت: دارالشروق.
- ٢٤- كرد علي، محمد. (١٩٩٣م). *المعاصرون*. (علّق عليه محمد المصري). (ط ٢). بيروت: دارصادر.
- ٢٥- محمد عويضة، محمد. (١٩٩٣م). *حافظ إبراهيم شاعر النيل*. بيروت: دارالكتب العلمية.
- ٢٦- محفوظ، أحمد. (د.ت). *حياة حافظ إبراهيم*. القاهرة: مؤسسة نصار للنشر.
- ٢٧- المصطفى، سيدحسن. (٢٠٠٩م). *التحقيق في كلمات القرآن الكريم*. (ج ١٣). (ط ٣). لندن: مركز نشر آثار العلامة المصطفوي؛ بيروت: دارالكتب العلمية.
- ٢٨- واصف، أبوالشباب. (١٩٩٨م). *القديم والجديد في الشعر العربي الحديث*. بيروت: دار النهضة العربية.